عمر في بيت المقدس

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

هذا عام ستة عشر من الهجرة ، وقد انساحت جيوش المسلمين في الشام والعراق وفارس وألقت أقاليم الشام بالقاليد إلا فلسطين . وأبو عبيدة ابن الجرّاح يحصر بيت المقـــدس ، وقد ملأ الأسماعَ والقلوب بأس المسلمين وعدلهم ووفاؤهم

عزم أهل البيت المقدس أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس — في عهد المسلمين وحمايتهم وعدلهم ، ورغبوا أن يكون صاحب عقدهم عمر ... عمر الذي ملأت سيرته الآفاق وسكنت إلى عهده النفوس ، واشتاقت إلى رؤيته العيون

وفصل عمر عن المدينة في جمع من الصحابة ومعه مولاه أسلم.

خرج يغذّ السير إلى الشام ليتفقد أحوال المسلمين ، ويصالح أهل فلسطين ...

ويمضي في طريقه حتى يبلغ أيلة . ويتنظّر الناس موكب أمير المؤمنين يحسبون أنه سيطلع عليهم في زينته يحيط به جنده ورجاله . والذي رأى منهم هرقل حين فتح بيت المقـدس قبل عشر سنين ، أو شهده من بعدُ في حلّ أو ترحال ، تخيّل عمر قادماً في موكب كموكب هرقل أو في موكب دونه ولكنه موكب ملك أو أمير

ولما دنا عمر من أيلة تنحى عن الطريق وتبعه غلامه فنزل قليلاً « ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فَرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه » . وكأن عمر خاف أن يداخله الزهو وهو على مركبه في غير زينة فآثر أن يشعر نفسه أنه وخادمه سواء فتحول إلى رحل غلامه . فلما تلقّاه أوائل الناس قالوا : « أين أمير المؤمنين ؟ قال : أمامكم (يعني نفسه) . وذهبوا إلى أمامهم فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها . وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها . فرجعوا إليه »[1]

ونظر الناس إلى رجل طويل جسيم أصلع أشقر شديد الحمرة كثير السبلة[2] في أطرافها صهوبة وفي عارضيه خفة — رجل لا تقع العين منه إلا على الوقار والتواضع والشدة في الحق والرأفة بالضعفاء . رأوا ملكاً في زي ناسك ، ورأوا أمة في صورة راعي ثلة . رأوا إنسانا لا تفقد فيه الإنسانية حقيقة من حقائقها ، ولا يصيب فيه الجبروت باطلاً من أباطيله .

اجتمع الأساقفة والرهبان يرون رجلاً في يده الدنيا ولكنها ليست في قلبه ، يملكها ولا تملكه ، ويصرّفها ولا تصرّفه ، ويستعبدها ولا تستعبده . وليس شيئاً أن تكون زاهداً في صومعة ولكن العظمة كلها أن تكون زاهداً والدنيا تحت قدميك .

« ودفع عمر قميصاً له كرابيسَ قد انجابَ مؤخّرُه عن قعدته من طول السير ، إلى الأسقُف وقال : اغسل هذا ورقعه . فانطلق الأسقف بالقميص ورقعه ، وخاط له آخر مثله فراح به إلى عمر ؛ فقال : ما هذا ؟ قال الأسقف : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته ؛ وأما هذا فكسوة لك مني . فنظر إليه عمر ومسحه

الغربيين ، لا أن يعلموا هم حقيقتنا ، وينفذوا إلى الصحيح من أخبارنا ومقاصدنا ، وإن كان علمهم بهذا نافعاً لنا كما تيسرت وسائله في أيدينا .

والذي يبدو لنا من العلم بحقيقة القوم أن العالم الإسلامي خليق أن يعامل كل من يعامله منهم على سنة الإنصاف والمنفعة المأمونة العواقب ، وكل ما ينبغي أن يحذره هو الإصغاء إلى دعاة الشيوعية والإصغاء إلى دعاة الفاشية ، وأن يكون ذنبا في أعقاب الديمقراطية ، فإذا استطاع أن يمشي مع الأمم الديمقراطية الحرة في الطليعة فلا عليه بعد ذلك أن يعامل من يشاء على سنة الإنصاف والنظر البعيد إلى عواقب الأمور .

عباس محمود العقاد

(١) الطبري حوادث سنة ١٧ (٢) طرف الشارب

ثم لبس قميصه وردّ عليه ذلك القميص . وقال : هذا أنشفهما للعرق[1] » .

— ٢ —

وسار عمر حتى نزل الجابية فى وسط الشام التى غلب عليها هرقل ، ولكنه دخل الجابية كما دخل أيلة . قدم « على جمل أورق تصطفق رجلاه بين شعبتى رحله بلا ركاب . وطاؤه كساء أنجانى ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل . حقيبة ممزقة أو شملة محشوّة ليفا هى حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، عليه قميص من كرابيس . الخ[2] »

وجاءه رجل من اليهود ، وكان اليهود يرقبون رَوح الله بأيدى العرب ، ويدعون الله أن يفرج كربهم ويذهب عنهم جبروت الروم بأيدى المسلمين . قال اليهودى : السلام عليك يا فاروق ، أنت صاحب إيلياء ، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء

وأقبل وفد بيت المقدس إلى الجابية فصالحوا ، وكُتب لهم عهد شهد فيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وأعطوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وألا يُكره أحد على الدين أو يضارّ فى شىء

وأزمع أمير المؤمنين المسير إلى بيت المقدس فإذا فرسُه يتوَجّى[3] فأتى ببرذون فركبه ومشى البرذون مِشيته فأسرع وهزّ راكبه فرأى عمر فيها خيلاء فنزل وضرب وجهه وقال : لا علّم الله من علّمك ، هذا من الخيلاء

— ٣ —

دخل عمر بيت المقدس لا مدّمراً مخرّباً كما دخلها بختنصر ، ولا مضطهداً أهلها كما دخلها الرومان من قبل ، ولا مزهوّاً بفتحه كما دخلها هرقل قبل عشر سنين بعد أن غلبَ الفرسَ على الشام ، ولكنه دخل رافعاً لواء التوحيد والعدل والأخوّة العامة والمرحمة الشاملة . دخل المدينة فسار إلى المسجد ليلاً ومضى إلى محراب داود فصلّى فيه . وطلع الفجر بعد قليل ودوّى الأذان فى أرجاء المدينة المقدّسة لأول مرة — صيحة الحق فى أعقاب الباطل المهزوم ترفعها تباشير الصبح فى أخريات الظلام . وشهد الله لقد كانت فاتحة الخير والسلم والكرامة لبيت المقدس ومن فيه .

وقرأ عمر فى الركعة الأولى سورة (ص) وسجد حين قرأ آية السجدة : « وظن داود أنما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب » . ثم قرأ فى الركعة الثانية أول سورة الإسراء — سورة بنى إسرائيل وفيه وصف ما أصابهم على يد البابليين

ثم تقدم إلى الكناسة — الكناسة التى تراكمت على البيت حين أُخرب وهجر والتى عجز اليهود أنفسهم عن إزالتها حين ملكوا أمر البيت — تقدم إلى الذلة المكدّسة على الحرم — تقدم عمر ليزيلها عن البيت كما أزال عن أهله الظلم والقسوة . تقدم أمير المؤمنين وجثا وقال : « أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى فرج من فروج قبائه » ، وإنما فعل عمر ما فعل تكريماً للبيت وتطهيراً وإيذاناً بهذا العهد عهد الطهارة والكرامة

وكبر كعب الأحبار وكبر الناس معه . قال عمر : ما هذا ؟ قال : كبّر كعب وكبّر الناس . قال : علىّ به . فقال كعب : « يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ بما صنعت اليوم نبىّ منذ خمسمائة سنة . فقال : وكيف ؟ فقال : إن الروم أغاروا على بنى إسرائيل فأديلوا عليهم فدفنوه ؛ ثم أديلوا فلم يفرغوا له[1] حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بنى إسرائيل ؛ ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليت[2] ، فبعث الله نبياً على الكناسة فقال : أبشرى أورى شلم ! عليك الفاروق ينقّيك مما فيك . أتاك الفاروق فى جندى المطيع ، ويدركون لأهلك بثأرك فى الروم[3] »

لقد لبث اليهود خمسمائة سنة ينتظرون أن تطلع شمس الإسلام ، ويأتى الفاروق ليحثو التراب فى قبائه ويأمر الناس بتطهير البيت المقدس

وما فقدوا رعاية الإسلام من بعدها ، إلا تسعين عاماً غلب فيها أهل الصليب فأصاب البيت المقدس ما أصابه حتى استرجعه رجل من رجال المسلمين ، ملك يتشبه بعمر بن الخطاب فى الإشادة بعدل الإسلام ومرحمة الإسلام . رحم الله صلاح الدين يوسف ابن أيوب

ولكن بنى إسرائيل حين رأوا الزمان ينيخ على المسلمين بكلكله لم يألوا عوناً للعرب والمسلمين ، ولم يذكروا فضل الإسلام ولا حفظوا يد عمر ، ولا اعترفوا برعاية المسلمين وحمايتهم ثلاثة

(١) كان قميص عمر من الكرابيس أى القطن وكان الأسقف قدم إليه قميصا ناعما وفى بعض الروايات أنه من كتان فلم يرضه عمر

(٢) تاريخ عمر لابن الجوزى

(٣) الوجى : العرج من الحفا

(١) غلب الفرس على آسيا الصغرى والشام ومصر أيام كسرى برويز إلى أن استردها هرقل ؛ وهى الحوادث التى أشير إليها فى سورة الروم

(٢) الطبرى حوادث سنة ١٥

(٣) يعنى رجعت الدولة لليهود فلم يفرغوا لازالة الكناسة عن حرمهم